حدود العقل

«ما أضمر أحدٌ شيئًا إلا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه».

علي بن أبي طالب رضي الله عنه

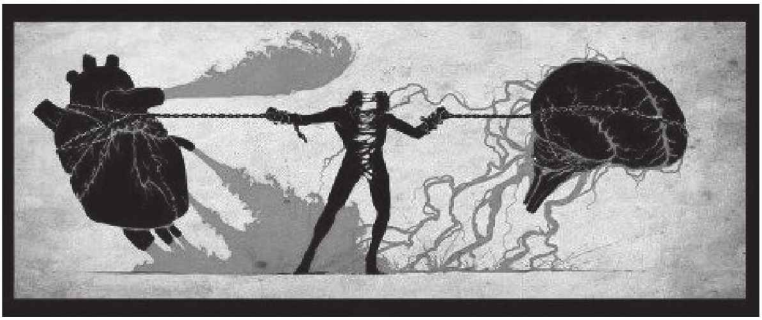

تقديم

لقد اعتبرت الفلسفة منذ القدم أن الوعي هو الخاصية الجوهرية التي تميز الإنسان عن باقي الأشياء والكائنات الأخرى، فالوعي يصاحب كل أفعال الإنسان وأفكاره، وهذا ما يُسمَّى الوعي التلقائي، ويرتبط الوعي

بالشعور وبمجموع الأحاسيس التي تجري داخل الذات، وهذا ما يُسمَّى الوعي السيكولوجي، وإن الوعي يتمظهر على مستوى الحياة العملية، فنتحدث عن وعي أخلاقي أو وعي سياسي مثلًا، فللوعي أشكال ومظاهر عدة، غير أن الدراسات الفلسفية والنفسية وضعت الوعي موضع استشكال ونقد، واعتبرته غطاءً خارجيًّا لا يمثل سوى سطح الذات أو الجهاز النفسي، بينما يمثل اللا وعي الجزء العميق من الذات.

فما الوعي؟ وما علاقته باللا وعي؟ ومَنْ منهما يتحكم أكثر في أفعال الإنسان وأفكاره؟ وهل يقدم لنا الوعي صورة حقيقية عن أنفسنا وعن الواقع؟

الوعي واللا وعي

إشكال المحور

كيف تتحدد علاقة الوعي باللا وعي؟ ومن منهما يتحكم في أفكار الإنسان وسلوكاته؟

سيغموند فرويد طبيب ومفكر نمساوي، ومؤسس التحليل النفسي ومكتشف فرضية اللا شعور، ومن أهم مؤلفاته (حياتي والتحليل النفسي)، و(خمسة دروس في التحليل النفسي)، و(قلق في الحضارة).

ما الذي يتحكم في أفعال الإنسان وأفكاره، الشعور أم اللا شعور؟ وما الذي يجعل فرضية اللا شعور ضرورية ومشروعة؟

يدافع فرويد عن فرضية اللا شعور وعن مشروعيتها، ذلك أن هناك أفعالًا وأفكارًا تصدر عن الإنسان لا يمكن تفسيرها انطلاقًا من الوعي، بل يجب إرجاعها إلى دوافع لا واعية.

اللا شعور هو ذلك الجانب الخفي والعميق في الجهاز النفسي، الذي يتكون من دوافع غريزية ومكبوتة لم يتم إشباعها نظرًا لتعارضها مع مبدأ الواقع.

قدّم فرويد مجموعة من الحجج لإثبات أطروحته، القائلة بمشروعية فرضية اللا شعور: معطيات الوعي ناقصة، ولا يمكنها تفسير كثير من الأفعال الصادرة عن دوافع لا واعية كالأحلام والهفوات.

تثبت التجربة اليومية أن هناك أفكارًا تأتينا دون أن ندري مصدرها، وهذا يعني أنها ناتجة عن دوافع ومحددات لا شعورية.

فرضية اللا شعور هي فرضية علمية تثبتها الممارسة الطبية النفسية، بحيث إنها حققت نجاحات على مستوى العلاج النفسي.

موقف غوستاف لوبون Gustave Le Bon متخصص في مجال Crowd psychology and Social psychology

غوستاف لوبون (7 مايو 1841 – 13 ديسمبر 1931) طبيب، وفيلسوف ومؤرخ فرنسي، كان مهتمًّا بعلم الآثار وعلم الإنثروبولوجيا، وعني بالحضارة الشرقية، ومن أشهر آعماله (حضارة العرب وحضارات الهند) و(باريس 1884) و(الحضارة المصرية) و(حضارة العرب في الأندلس).

ما الذي يتحكم في أفعال الإنسان أكثر الوعي أم اللا وعي؟ وما مكونات اللا وعي؟ يؤمن غوستاف لوبون باللا شعور، ويعتبره مهيمنًا على الحياة النفسية أكثر من الشعور، ويتخذ اللا شعور عنده طابعًا جماعيًّا من خلال ارتباطه بروح العرق؛ أي بماضي الجماعة الثقافي والفكري الذي يتوارثه جيل عن جيل، ويتحكم في الأفراد بشكل لاواعي، ويتمظهر في سلوكهم وطقوسهم الاجتماعية.

- البنية: هي نظام يتكون من مجموعة العناصر التي تترابط فيما بينها وفقًا لعلاقات محددة، بحيث إن أي تغير في عنصر من عناصر البنية يؤثر في بقية العناصر.
- روح العرق: هي العناصر الثقافية والسيكولوجية التي تميز سلاسةً أو عرقًا معينًا، وتُتوارَث جيلًا عن جيل.
- اللاشعور - روح العرق: يتخذ اللا شعور صبغة جماعية، فهو يتكون من عناصر وراثية تشكل روح العرق التي تتميز بها جماعة ما.

أ- أسلوب الدحض أو التفنيد

حيث دحض الأطروحة النقيض التي تقول: إن الوعي هو الذي يتحكم في ذات الإنسان وأفعاله.

ب- أسلوب العرض

إن أفعالنا تتكون من عناصر وراثية تعود إلى ماضي السلاسة والعرق.

وهنا يقدم صاحب النص أطروحته التي تقول: إن أفعال الإنسان صادرة عن دوافع لا شعورية.

يفترض علماء النفس التحليليون وجود ثلاثة حدود للعقل:

1. الوعي Consciousness

هو ما يدرس الإنسان، ويعيد عن نفسه ومحيطه، وساواه بعضهم بالعقل، وافترضوا الوعي والإدراك هما الضرورة للتعبير عما هو عقلي.

إن مجال التجربة العقلية الواعية يعقد على عملية التذكر، ويخضع لما تخضع له هذه العملية من استمرارية أو استبعاد أو نسيان، ولا تشمل جميع تجارب الفرد الماضية والحاضرة لعدم استطاعته تذكرها في آن واحد وبدرجة واحدة من الوضوح، فإنها تقتصر على ما وقع في مجال الإدراك الحالي من تجارب عقلية، إضافة إلى ما يستطيع استدعاءه من التجارب السابقة سواء إراديًّا عن طريق عمليات التذكر والتأمل أو كان تلقائيًّا كما في عمليات التخيل والاسترسال الفكري.

2. اللا وعي Unconcious

هذا المجال الثاني من حدود الحياة العقلية لا يدركه الفرد، ولا يعيد، ولا يعلم بما فيه من تجارب ودوافع واتجاهات، ولا يستطيع النفاذ إلى محتواه عن طريق البصيرة أو التأمل أو التفكير، إنه باختصار الناحية غير المنظورة من حياتنا العقلية، ولها المقدرة على التأثير في سلوك الفرد وتفكيره الواعي وانفعالاته العاطفية.

لقد برهن فرويد على وجود هذا الحيز الأكبر من حدود العقل، واعتبره الأهم في حياتنا العقلية؛ لما له من القوة الدافعة للسلوك والانفعالات في الحالتين الطبيعية والمرضية.

إن من طبيعة اللا وعي هو إقحام نفسه في عمق الوعي، فيخلّ عليه توازنه، ومع أن هذا الافتراض غير صحيح، فوجود اللا وعي بمعناه النفسي أو المادي هو ضرورة للتوازن النفسي في حياة الإنسان، فيقوم بالاحتفاظ ببعض التجارب لتسهيل عملية التفكير والإبقاء عليها لتعينه على تصريف حاجات دون عناء التفكير الواعي فيها.

إن عملية اضطراب التوازن بين الوعي واللا وعي في حياتنا العقلية هي مظهر واضح للأمراض العقلية والنفسية، وإن تكامل العمل بين هذين المجالين هو المظهر الواضح للتوازن النفسي.

3. ما وراء الوعي subconsciousness

هو الحد الثالث من حدود العقل، فيختلف من مجال الوعي في أنه لا يمكن أن يكون من التجارب التي يدركها الإنسان في حاضره، وباختلاف عن اللا وعي أنه لا يمكن أن يكون من التجارب التي اختبرها، واستقرت في حيز اللا وعي. إنه تجربة عقلية جديدة في صفاتها الحية، ويمكن اعتبارها من إمكانيات العقل لا من تجاربه.

ولأنه لا يمكن تفهم هذه التجربة وإدراكها ومماثلتها مع تجربة عقلية لما لها من ميزات خاصة حسية وعقلية لا يقنى لنا الوصول إليها ومشاركة

الفرد فيما يحسه، فتبقى عملية الإجهاد الفكري هي الملاذ لتفسير هذه الميزة من الناحية الأكاديمية فقط.

ويَعدّ بعضهم أن معظم الأمراض العقلية وخاصة الفصام (الشيزوفرينيا) هي مظهر من مظاهر هذا الحد الثالث؛ لأن ما يختبره مريض الفصام من تجربة جديدة على حياته العقلية لا يشبه في شيء تجاربنا العقلية التي مرت بنا، ولهذا لا يتسنى لنا الولوج لمثل هذه التجارب وتفسيرها على نحو موضوعي محسوس، وقد تبيّن من خلال تأثير بعض العقاقير في العقل، ومنها المهلوسات hallucinogens وخاصة مادة أل LSD فتتشوه عملية الإدراك للمثيرات الحسية مثل المسكالين mescaline وإحداثها بعض الأحاسيس الغريبة على الحياة العقلية مثل (التزامن الحسي) التداخل الحسي synaesthesia فيدرك الفرد المثير الحسي على غير صورته الطبيعية، فتراه يسمع اللون، ويرى الصوت، ويضع الزمن ضمن هذه التجربة الحسية، وقد يتغير عالم البيئة المحيطة Derealization من حوله ومعالم الشخصية Depersonalization والتجرد عن الذات ما أتاح المجال لاعتقاد تشابه بين هذه النتائج الحسية وأعراض الفصام العقلي، أو اعتقاد أن الأخير قد يحتمل أسباب إصابته للفرد استخدام مثل هذه المواد في طبيعتها أو مفعولها على العقل إلا أنها ما زالت ذات أهمية علمية للبحث عن طبيعة الأمراض العقلية ولأغراض تشخيصية لاكتشاف إمكانيات العقل البشري، وهذا ما أقره المفكر الروائي Aldus Huxley من خلال تجاربه الخاصة لاستعمال السكالين بقوله: إنها تفتح آفاقًا جديدة وواسعة وغير منظورة أمام العقل الإنساني، ولكن سوء استخدام هذه المادة وأثرها في السلوك الإدماني أدى إلى حصرها للأغراض العلمية البحثية.

هل للعقل حدود في الاسلام؟

العقل البشري ملكة إنسانية وظيفتها -بالتعامل مع ملكات الإنسان الأخرى- تحقيق الوجود الإنساني في هذا الكون في أسمى صوره الإنسانية؛ ولهذا من أجل استبصار هذه الوظيفة ومن مسارات حركة العقل ينبغي ابتداءً وعي هدف وجود الإنسان في هذا العالم. لقد خلق اللّٰه الإنسانَ ليكون خليفة على هذا الكوكب الأرضي يستعمره، ويستثمر خيراته عبر بناءات حضارية وعلمية تعجز عنها المخلوقات المحيطة بها جمادًا ونباتًا وحيوانًا، ومن أجل تحقيق الإنسان لهذه الخلافة وفق الصورة الصحيحة أمده المولى الكريم بشيئين:

- بقدرات الحس والعقل التي هي وسيلته للعلم ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل:78].
- وبمنهج يحدد له علاقاته بالموجودات من جهة، وبسبل استثماره لهذه القدرات من جهة أخرى.

بناءً على هذا، فإن ما هيئ العقل للعمل فيه ومن ثم الإبداع والإنتاج هو:

أولًا: استقبال منهج اللّٰه وفقهه لتكييف الحياة على أساسه اعتقادًا وتعبدًا وسلوكًا.

وثانيًا: النظر في الكون وتعرف سننه وتسخير معطياته لخدمة الإنسان.

وهذا ما يعبر عنه بعض العلماء حينما يقولون: إن مهمة العقل هي النظر في كتاب الله المسطور، وكتابه المنظور، وفي هذا الإطار كان التوجيه القرآني والنبوي للعقل الإنساني أن يندفع في مجالات، وأن ينأى بنفسه عن مجالات أخرى.

ما العلة من خلق العقل المتطلع للمجهول، ثم وضع حدود له؟

والخطأ في هذا التساؤل هو اعتقاد ضمني بأن مجال المحسوسات هو مجال العقل، وليس الغيبيات، والصواب هو أن المحسوسات والغيبيات كليهما مجال للعقل على حد سواء، ولكن بشرط التفكير العقلي الموافق للوحي، وهو التسليم بخبر الوحي في الغيبيات، وهو موقف عقلي صحيح.

أي حقيقة هي ذات طبيعة مزدوجة، فمن حيث مصدرها، فيجب التصديق، ومن حيث قابليتها للتفكر، فهي دائمًا في حاجة لمزيد من الاختزال؛ أي المزيد من ربطها ودمجها مع التصور الإسلامي العام.

ومن أهم الحدود العقلية القناعة والتسليم. وعلاقة العقل بالقلب هي أساس هذا التفسير، فعندما يصدق العقل بالحقيقة يرسلها إلى القلب لتستقر، مرورًا بالصدر الذي ينشرح لها، فلا تَحيك فيه، فإذا استقرت الحقيقة في القلب يكون الاطمئنان والإيمان؛ لأن الإيمان هو الاطمئنان.

وليكون التسليم العقلي بعد الاطمئنان هو الالتزام بكل مقتضيات الإيمان، وأول ذلك الإيمان بكل ما أخبر به الله من غيبيات، وأمر به من تكاليف.

وبذلك تكون علاقة العقل بالإيمان هي القناعة ابتداءً، والتسليم انتهاءً، فلا يكون تسليم بغير قناعة في الابتداء، ولا تشترط القناعة بعد التسليم في الانتهاء، وهذا التصور تدخل فيه اعتبارات عدة:

الاعتبار الأول: أن مرحلة التسليم في الانتهاء لا يجب أن يكون فيها ما يُناقض العقل، ولكن التسليم قد يكون فيما لا يبلغه العقل، مثل الغيبيات والأحكام التي لم تبلغ العقول إدراك الحكمة منها.

الاعتبار الثاني: أن يكون التسليم أمام نصوص شرعية صريحة، ولا يكون أمام أقوال أو اجتهادات بشرية؛ لأن العقل من حقه رد الاجتهاد العقلي للآخرين.

والقرآن يثبت إمكانية وصول الإنسان لمعرفة الله بهذه الطبيعة، وذلك في آيات سورة الأنعام: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: 75-79].

حيث ارتكز في كلامه معهم على حقائق فطرية عدة، هي:

- أنه مركوز في الفطرة أن الله فوق الخلق، فنظر في السماء.
- ومركوز في الفطرة أن الله لا يغيب، فرفض الكوكب بعد أن أفل.

- ومركوز في الفطرة أن الله أكبر، فاتجه إلى القمر؛ لأنه أكبر من الكوكب.
- ومركوز في الفطرة أن العبادة غاية الحب، فكان يرفض هذه الظواهر بقوله -تعالى-: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: 76].

وكلمة: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ تمثل في معنى الإيمان، وفي مواجهة التحريف النصراني حقيقة مهمة جدًّا؛ ذلك أن النصارى يقولون: إن الطريق الأساسي للفهم هي أن تصير كالمحبوب؛ لأن المرء لا يفهم إلا بمقدار ما يصبح متحدًا مع الشيء الذي يحبه.

العقل في القرآن الكريم

1- ورُوده بصيغة فِعل العقل

ورد فِعلُ العقل في القرآن الكريم في تسعةٍ وأربعين موضعًا، ولم يَرِدْ بشكلِ مصدر مطلقًا، وكل أفعال العقل تدلُّ على عملية الإدراك والتفكير والفهم لدى الإنسان، ويمكن حصر هذه الأفعال فيما يأتي:

أ. ورد فعل العقل بصيغة (تعقلون) في أربعة وعشرين موضعًا في القرآن؛ منها قوله -تعالى-: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 242]، وقوله -تعالى-: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: 2].

ب. وورد بصيغة (يعقلون) في اثنين وعشرين موضعًا؛ منها قوله -تعالى-: ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: 171].

ج. وورد بصيغة (يعقلُها) مرةً واحدة في قوله -تعالى-: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 43].

د. وورد بصيغة (نعقل) مرةً واحدة في قوله -تعالى-: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: 10].

هـ. وورد بصيغة (عقلوه) مرة واحدة في قوله -تعالى-: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: 75].

2- وُروده بلفظ الألباب (ج/ لُبّ)

وقد وردت كلمة (الألباب) في القرآن في صفة أصحاب العقول ستَّ عَشْرةَ مرة في القرآن الكريم؛ منها قوله - تعالى -: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 179]، وقوله -تعالى-: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [البقرة: 269].

3- وروده بلفظ النُّهَى الدال على العقل

وقد وردت أيضًا كلمة (النُّهَى) في القرآن لتدل على أصحاب العقول أيضًا، مرتين في القرآن، وهما: ﴿كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: 54]: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: 128].

4- وروده بلفظ القلب

وقد ورد في القرآن الكريم لفظ (القلب) ليدلَّ على العقل أيضًا في إحدى دلالاته، قال -تعالى-: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: 179]: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: 37].

5- وورد بلفظ الحِجْر

ورد بلفظ (الحِجْر) ليدل على العقل مرة واحدة في القرآن الكريم، قال -تعالى-: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر: 5].

6- وُروده بلفظ الفكر الذي هو نتاج العقل

أ. ورد بصيغة (فكَّر) مرة واحدة في قوله -تعالى-: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ [المدثر: 18-19].

ب. وورد بصيغة (تتفكَّروا) مرة واحدة أيضًا في قوله -تعالى-: ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ [سبأ: 46].

ج. وورد بصيغة (تتفكَّرون) 3 مرات؛ منها قوله -تعالى-: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: 219].

د. ووردت بصيغة (يتفكَّروا) مرتين، منهما قوله -تعالى-: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ [الروم: 8].

هـ. ووردت بصيغة (يتفكَّرون) إحدى عشرة مرة، منها قوله -تعالى-: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: 3].